الأم

مكسيم غوركي

****

هلموا نمجد الامرأة — الأم ، فهي ينبوع تتدفق منه الحياة المتغلبة عَلَى كل شيء ·

الكلام يُساق هنا عن تيمورلنك الفهد الاعرج ، صاحب كيران ، الفاتح السعيد — او تامرلان ، كما يدعوه الكفـار — ذلك الرجل الذي هم بتدمير العالم بأسره

خمسين عاماً أوغل في الارض يدوس البلدان والممالك بقدمه الحديدية فيخربها ، كالفيل اذ يدوس برجله قرية النمل و كانت تجري في اثره انهار حمراء من الدم تتدفق في الجهات · و كان يبني ابراجاً شاهقة من عظـام المغلوبين · و كان يدمر الحياة لينازع المنية حق السلطة ، آخذاً منها بالثار ، لانها انشبت براثنها في ابنه جهانغير · يا له من رجل هائل اراد ان يحرم المنية كل ضحاياها لتهلك جوعاً وضجراً ·

ثلاثين عاماً ظل تيمور لا يبتسم · منذ قضى ابنه جهانغير نحبه فخرج اهالي سمرقند عن بكرة ابيهم لملاقاة المنتصر قاهر الجتيين الاشرار لابسين السواد والازرق حداداً وقد ذروا الرماد والتراب عَلَى روءوسهم حزناً — منذ ذلك اليوم حتى الساعة التي واجهته بها المنية في اوترار فتغلبت عليه لم يبتسم

مرة واحدة ، بل كان يعيش مقطب الشفتين لا يحني رأسه لاحد وظل موصداً قلبه دون الحنان ثلاثين عاماً .

هلموا نمدح الامرأة — الام ، فهي وحدها القوة التي يخضع الموت لها صاغراً — وهنا سنورد قصة حقيقية عن الام ، وكيف خضع لها خادم الموت وعبده تيمور الحديدي آفة الكون ومدميه .

حدث ذلك كما يأتي — كان تيمور بك منعكفاً عَلَى لهوه في وليمة اقامها بوادي كانيغولا الجميل المسقوف بسحائب الورود والياسمين ، وهو وادٍ يدعوه شعراء سمرقند « غرام الازهار » يرى منه الناظر مآذن المدينة العظيمة وقبب مساجدها الزرقآء .

ضُربت في ذلك الوادي خمسة عشر الف قبة ، فانبسطت كلها كمروحة مفتوحة ، ولاحت كشقائق نابتة في مرج ، وفوق كل منها مئات من الاعلام الحريرية تميس كالازهار الطبيعية .

وكانت في وسطها جميعاً خيمة غورغان تيمور كأنها الملكة بين وصائفها . وهي خيمة لها جوانب اربعة ، طول كل جانب منها مائة قدم . وعلو الخيمة ثلاثة ارماح . وكان سقفها مرفوعاً عَلَى اثني عشر عاموداً من الذهب ثخن احدها كثخن الانسان . وفي اعلاها قبة زرقاء . والخيمة كلها مصنوعة من شقات حريرية سوداء وصفراء وزرقاء تربطها بالارض خمسمئة من البنود الحمراء لئلا تطير الى الجو . وكان في زواياها الاربع اربعة نسور فضية . وفي وسطها عَلَى مرتفع تحت القبة نسر خامس — هو تيمور غورغان

بعينه — ملك الملوك الذي لا يُقهر ·

وكان مرتدياً ثياباً واسعة من الحرير بلون السماء تزينها من حبوب اللوءلوء لا اكثر ولا اقل من خمسة الاف حبة كبيرة ، وعَلَى رأسه الشائب المربع قبعة بيضآء تزين رأسها المحدد عقيقة تتهادى وتهتز كأنها عين من دم ترمق الكون ·

وكان وجه الاعرج كنصل خنجر عريض قد غطاه الصدأ — صدأ الدماء التي انغمس فيها الوفاً من المرات وكانت عيناه صغيرتين ضيقتين ، ولكنهما تبصران كل شيء ، ولمعانهما يشبه تألق الزمرد — ذلك الحجر الكريم الذي يحبه العرب ويقولون انه يشفي من داء النقطة ، واذناه مزينتين بقرطين من ياقوت سيلان المشبه لونه شفتي غادة حسناء ·

وكان عَلَى الارض ، فوق طنافس لا تجد مثلها اليوم ثلاثمئة ابريق من الذهب قد صُفت مترعة خمراً وبازائها كل ما يلزم لولبمة الملوك · وكان الموسيقيون وقوفاً وراء تيمورلنك ، وانسباوءه والمقربون اليه من ملوك وامراء وقواد جلوساً عند قدميه ، أما بجانبه فلم يكن احد

وكان ادنى الناس اليه مجلساً الشاعر كرماني وهو يهتز سكراً · وهو ذلك الشاعر الذي قال له مدمر الارض ذات يوم

— كم تدفع ، يا كرماني ، في لو عُرضت للبيع في السوق ؟ فاجابه عَلَى الفور

— خمسة وعشرين عسكرياً ·

فصاح به تيمور متعجباً — ولكن ألا تدري ان هذا ثمن منطقتي فقط ؟

فاجابه كرماني

-- انا لم أفكر الا بمنطقتك ، فانت نفسك لا تسوى بارة ٠

هذا ما قاله الشاعر كرماني لملك الملوك ، رجل الشر والهول ٠ فلهذا أعلوا مجد الشاعر صديق الحقيقة فوق مجد تيمور أبداً ٠

ألا فلنمجد الشعراء الذين لهم اله واحد — هو كلمة حق جميلة تقال دون خوف ابداً ٠

في تلك الساعة لما كان القوم في لهوهم وقصفهم غارقين يترنمون بذكرى وقائعهم وانتصاراتهم ، وقد انغمسوا في ضجة الالحان ولغط الالعاب العمومية الجارية امام خيمة الملك ، حيث كان الاقوياء يتصارعون ، والراقصون على الحبال يتلوون كأنهم لا عظام لهم ، والفرسان يتجارون في المضمار ويتبارزون بالسيوف في الميدان ، متبارين في اتقان فن القتل ، والافيال تستعرض ، وقد صُبغ بعضها باللون الاحمر والبعض الاخر باللون الاخضر فاصبحت هيئاتها من جراء ذلك بين مرعبة ومضحكة -- في تلك الساعة -- ساعة مرح رجال تيمور السكارى من خوف سيدهم ، ومن الاعجاب بمجده ، ومن عيائهم بعد معارك الفوز ، ومن شرب الخمر والقميشة — في تلك الساعة بينا القوم في حالة شبيهة بالجنون اذا بعويل امرأة قد دوى في الانحاء واتصل باذني قاهر بيازيد مخترقاً عباب الضجيج كما يخترق البرق الغيوم ٠ دوى ذلك الصوت كصرخة نسر متكبر ففهمه تيمورلنك لانه كان قريباً الى نفسه

الكئيبة التي اهانها الموت فاصبحت تقسو عَلَى الناس والحياة ·

فامر ان يُستعلم عن مصدر هذا الهتاف الخالي من البهجة · فقيل له ان امرأة قدمت معفرة بالتراب تكسوها اطمار بالية وتظهر كفاقدة رشدها · وهي تتكلم بالعربية وتتطلب بسلطان — بلى بسلطان ان ترى تيمورلنك سيد اقاليم الأرض الثلاثة ·

فقال تيمور

— ائتوا بها !

فمثلت امامه امرأة جافية تسترها ثياب بالية غيرت الشمس ألوانها ، وقد انحلت غدائرها السوداء فغطت صدرهـا العازي · وجههـا نحاسي اللون ، وعيناها تنظران نظرة الآمر ، ويدها القائمة المبسوطة نحو الاعرج لا ترتجف ·

فقالت له سائلة

— أهذا انت الذي غلب السلطان بيازيد ؟

— نعم ، انا هو · لقد قهرت كثيرين ، فكان هو من الجملة · ولم اسأم حتى الان من الظفر · ولكن هل لكِ ما تقولينه عن نفسك ، يا امرأة ؟

فقالت — ألا اسمع ! مهمـا صنعت فلست سوى انسان ، امـا انا فأم · انت تخدم الموت ، اما انا فاخدم الحياة · انت مذنب اليّ ، ولذلك جئتك اطلب منك كفارة عن ذنبك · قيل لي ان شعارك هو " القوة في الانصاف » عَلَى اني لا اصدق ذلك · بيدَ انه يجب ان تكون منصفاً نحوي ، فاني أم

وكان الملك حكيماً الى درجة تمكن فيها من التغاضي عن جسارة هذه الكلمات وادراك القوة المستترة وراءها · فقال

— اجلسي وتكلمي · أود ان أسمع كلامك ·

فجلست كما تسنى لها عَلَى البساط في حلقة الملوك المتزاحمين · وهاك ما قصته ·

— لقد جئت من قرب سالرنو — من مكان بعيد في ايطاليا ؛ ولا اخالك تدري اين تلك الجهات · كان ابي صياداً وزوجي مثله · وكان زوجي جميلاً سعيداً · انا جلبت له السعادة · وكان لي غلام هو اجمل الاولاد في العالم ···

فقال الفاتح الهرم مقاطعاً اياها بتأنٍ

— مثل ولدي جهانغير ···

فاتمت الامرأة كلامها قائلة

— ولدي اجمل الاولاد أجمع واذكاهم · وكان له من العمر ست سنوات · فاتى شاطئنا مركب فيه قرصان من العرب فسبوا ولدي · وها قد صار لي اربع سنوات أطوف في الارض افتش عنه · هو الان لا شك عندك · قد تأكد لي ذلك ، لاني علمت ان جنود بيازيد أسروا القرصان ، وانك قهرت بيازيد وانتزعت كل شيء من يده · فعليك ان تعلم اين ولدي ، وعليك ان تدفعه الي ! !

فضحك الجميع ، وقال الملوك والامراء الذين يحسبون انفسهم حكماء

كل حين ·

— انها مختلة الشعور ·

وضحك الملوك والندامى من امراء وقواد جميعاً

انما الشاعر كرماني وحده بين هوءلاء نظر اليهـا برزانة · وكذلك تيمورلنك رنا اليها بتعجب ·

وقال كرماني الشاعر السكران متأنياً

— انها مجنونة كأم ·

اما الملك عدو الكون فقال

— ألا كيف اتيتِ ، يا امرأة ، من تلك الاقطار التي اجبلها واجتزتِ البحار والانهار والجبال والغابات ؟ كيف لم تمسك الوحوش بسوء ، او الناس ، وهم اكثر الاحيان اشد أذى من الضواري ، وقد كنت عزلاء من السلاح ، وهو الصديق الوحيد للذين لا نصير لهم ، لا يخونهم ما دام في يدهم قوى · أود ان اعرف هذا كله لاصدقك ، فلا يحول عجبي دون فهمك.

ألا فلنمجد الامرأة — الام ، التي ليس لحبها حد ، تلك التي تغذي العالم بثدييها · كل ما هو جميل في الانسان تأتي عن اشعة الشمس ولبن الام — هذان الشيئان هما مصدر ما في قلوبنا من محبة الحياة ·

فقالت الامرأة لتيمورلنك

— لقد صادفت في طريقي بحراً واحداً فوجدت فيه كثيراً من الجزائر وقوارب الصيادين · ومن الموءكد انك اذا كنت تفتش عن حبيب لا تعدم

ريحاً موافقة . اما الانهار فما اهون قطعها سباحة عَلَى من ولد وترعرع عند شاطىء البحر . اما الجبال — فاني لم ألم جبالاً .

هنا قال الشاعر كرماني بصوت يمازجه الطرب

— ان الجبل يتحول سهلاً امام المحبين .

— أجل لقد مررت في طريقي باحراج فيها خنازير برية ودببة ونمورة وثيران ضارية هائلة رأيتها تحني رؤوسها الى الارض علامة التهديد . وقد رنا اليَّ الفهد مرتين بعينين تشبهان عينيك ، بيدَ انلكل وحش قلباً. فكلمتهم كما اكلمك الان ، فصدقوا اني ام — وراحوا وهم يتنهدون مشفقين عليَّ . ألعلك لا تدري ان الوحوش كسواها تحب الاولاد وتدافع عن حياتهم وحريتهم مدافعة ليست باسوأ من مدافعة البشر ؟

فقال تيمور — صدقت ، يا امرأة . انا اعلم ان الوحوش شدَّ ما تحب حباً اقوى من حب البشر وتدافع مدافعة اصعب مراساً من مدافعة الناس .

— فاكملت المرأة حديثها وقالت

— الناس كالطفل . فان كل ام منهم هي طفل مئة مرة في نفسها . والناس عَلَى الاطلاق ابناء امهاتهم . أليس لكل منهم أماً ؟ أوَليس كل منهم ابن امرأة ؟ حتى انت ايها الهرم — ولا اخالك تجهل ذلك — مولود من امرأة . تستطيع ان تنكر الله ، ولكنك لن تستطيع نكران هذه الحقيقة ، ايها الشيخ .

فهتف كرماني الشاعر الجسور

— صدقت يا امرأة . ان قطيعاً من الثيران لا ينتج العجول . وبغير الشمس لا تنور الازهار ، وبغير الحب لا سعادة ، وبغير الامرأة لا حب ، وبغير الام ليس من شاعر ولا بطل .

فقالت الامرأة

— اعطني طفلي ، فاني امه واحبه

ألا فلنسجد للامرأة — فهي التي ولدت موسى ومحمداً والنبي العظيم عيسى الذي قتله الاشرار ، ولكنه سيقوم من الموتى — كما صرّح شريف الدين — ويأتي ليدين الاحياء والاموات ، ويكون ذلك في دمشق — أجل ، في دمشق !

ألا فلنسجد امام تلك التي لا تنفك تلد لنا العظام بلا انقطاع . فارسطاطاليس من ابنائها ، والفردوسي ، والسعدي الحلو كالعسل ، وعمر الخيام المشبه خمراً ممزوجة بالسم ، والاسكندر ، والاعمى هوميروس — هوءلاء كلهم ابناوءها ، كلهم رضعوا لبانها ، كلهم قادتهم الى الورى حين كان طول كل منهم لا يربو عَلَى زهرة السوسن . ألا فلنسجد لها فان كل فخر في العالم مصدره الامهات .

فكر تيمور غورغان الهرم الاشيب النمر الاعرج مدمر المدائن ملياً وصمت طويلاً . ثم قال موجهاً خطابه للجميع .

— مين تانكري كولي تيمور ! (انا ، عبدالله تيمور ،) أقو

ان اقوله ! لقد عشت سنين كثيرة حتى اصبحت الارض تأن تحتي · وقد صار لي ثلاثين سنة استأصل حصاد الموت بهذه اليد لاثأر منه لولدي جهانغير الذي اخترمته المنون — لاجازي الموت على اطفائه شمس فوءادي · كثيرون قاوموني وحاربوني دفاعاً عن الممالك والمدن ، ولكن لم يقاومني احد دفاعاً عن الانسان ، فلم تبق للانسان قيمة في عيني واصبحت لا ابالي بما هو الانسان ، ولا لماذا وُجد في طريقي · انا ذاك تيمور الذي قال لبيازيد بعد أن قهره — « يلوح لي ، يا بيازيد ، ان الممالك والناس لاشياء تافهة في نظر الله · ألا تراه يدفعها الى يدي اناس مثلي — انا الاعرج — ومثلك — انت الاعور ! » قلت له هذا عندما جيء به الى حضرتي يرسف في قيوده يأن عاجزاً عن القيام تحت اثقالها · قلت له هذا ونظرت الى تعاسته فشعرت ان الحياة مرّة كالحنظل نبات الخرائب ·

— انا ، عبدالله تيمور ، اقول ما يجب ان اقوله ! هوذا امرأة جالسة بحضرتي ومثلها في الورى عدد لا يحصى ، ولكنها اثارت في نفسي شواعر كنت اجهلها · كلمتني كما تكلم مساوياً لها ، ولم تلتمس ما تريد بلسان الاسترحام بل طلبته بلهجة الآمر المتقاضي · فادركت ما الذي جعل هذه الامرأة قوية — هي تحب · وحبها جعلها تدري بان طفلها لشرارة حياة قد يتأتى منها لهيب يدوم اجيالاً · أولم يكن الانبياء والرسل اطفالاً ؟ أو لم يكن الابطال كلهم ضعافاً ؟ أواه ، يا جهانغير ، يا نور عيني ! ربما كان ان تنير الارض وتدفئها وتزرع فيها بذور السعادة — فلقد رويتها

انا بالدماء فاصبحت مخضبة ·

وعاد آفة الشعوب الى التفكير ملياً ثم قال

— انا ، عبدالله تيمور ، اقول ما ينبغي قوله · ليذهب في الحال ثلاثون فارساً الى انحاء مملكتي وليجدوا ابن هذه الامرأة · اما هي فتبقى هنا بالانتظار وأبقى انا كذلك · وسعيد من يعود بطفلها عَلَى سرج جواده — يقول تيمور ! أليس كذلك ، يا امرأة !

فازاحت شعرها الاسود عن وجهها وابتسمت له واومأت برأسها ايجاباً وقالت

— بلى ، ايها الملك ·

حينئذٍ وقف الشيخ الرهيب وانحنى امامها صامتاً · اما الشاعر الطروب كرماني فانشد مبتهجاً كالطفل —

أي شيء ابهى من الاشعارِ نُظمت في النجومِ والازهار
ان خيراً منها قصيدة حبٍ عند صبٍ يهيم في كل دار

· · ·

أي شيء ابهى من الشمس في يوم — صبيح من الربيع عجيب؟
ان خيراً منها ، يعرف محبٍ عذبته النوى ، محيا الحبيب

· · ·

ايه ، ان النجوم ذات بهاء ايه ، والشمس لا محالة ابهى
ايه ، لكن نظرة من حبيبي حين يحنو أبهى وألطف منها

· · ·

انما أجمل الاناشيد في الدنيا — نشيد لم تأتِ فيه روايه
هو نعم النشيد يفصح عن قلب — البرايا ، عن بدء كل بدايه

. . .

هو نعمَ النشيد عن مهجة الارض — واصل الحيـاة بين العباد
عن فؤاد التي يسمونها « الام » — وأعجب بحسنه من فؤاد

*

وقال تيمورلنك لشاعره

— أصبت ، يا كرماني ، فالله لم يخطأ في انتخاب شفتيك وعاءً لنشر حكمتـه .

فقال كرماني السكران

— أجل ، ان الله نفسه لشاعر مفلق .

أما الامرأة فابتسمت ، وابتسم لها الملوك والامراء والقواد وسائر الابناء وهم ينظرون اليها — الى الامرأة الام .

***

كل هذا حقيقة . كل ما ذكر هنا من الكلام هو الصدق بعينه تشهد بذلك امهاتنا . سلوهن يقلن لكم

— بلى ، كل هذا حقيقة ابدية نحن اقوى من الموت ، نحن اللواتي ما زلنا نقدم للورى بلا انقطاع حكماء وشعراء وابطالاً ، نحن اللواتي ما زلنا نزرع فيه كل ما يرفع شأنه ويوصل الى مجده .